محاولة في الشعر

بقلم : محمد مجذوب

الشعور بضغط القيود العروضية قديم على الشعراء ، يلوح أثره في شعر الجاهليين ، كما يتجلى في شعر العصور المتتابعة ، وليس الخرم والخرم والتواء الاوزان ، حتى الزحافات والعلل ، ثم الجنوح الى تلوين القوافي من المزدوج الى الدوبيت فالتوشيح والتخميس.. إلا مظهراً من التمرد على هذا الضغط ؛ ولسبب من ذلك ادّعى أبو العتاهية انه أكبر من العروض ..

وطبيعي أن يستمر هذا الشعور ، وان يستفحل في عصر النهضة ، فيتخذ لنفسه خطة جريئة في الاعراب عنه ، فينبثق هذا اللون الجديد من الشعر الذي يسمونه (الشعر الحر) . .

ولقد سبق ان أشرتُ الى ضرورة التعديل في الشعر المعاصر ، أثناء حديثين ألقيتهما من مذياع دمشق – قبل ثلاث سنوات – ثم نشرتهما مجلة الاديب الغراء بعنوان (دعوة الى الادباء) ، ولكن موضوع الشعر فيهما لم يكن رئيسياً ، فلم يعرض له الادباء الذين عقبوا عليهما يومذاك . .

وكان في نفسي ان أخص الشعر بحديث آخر ، ولكن مشاغل الدرس والتدريس والتأليف حالت دون ذلك ، ولا سيما ان موضوعاً كهذا يتطلب فراغاً وتهيؤاً لكلام طويل فيه الاخذ والرد ؛ واتفق ان التقيت ذات يوم بالشاعر الاستاذ أبي ريشه ، وتناولنا في بعض الكلام حديث الشعر ، وأفضيت بما أراه من ضرورة العمل على توجيهه وجهة جديدة ، تتسع لتيارات الحياة الحديثة ، وتخفف عن الشعراء بعض قيوده التقليدية ، وكان اختلافنا واسعاً في الامر ، وبخاصة من حيث القافية ،التي يعتبرها الشاعر أبو ريشة ضرورة فنية لا مناص منها.

ثم حبست الفكرة في نفسي ، أترقب لها الفرص الملائمة ، وظهرت أثناء ذلك بحوث حول الموضوع ، ونماذج كثيرة من الشعر الجديد ، لعل أبرزها ما كان من شعر شباب العراق . .

ومرة أخرى تعاودني الرغبة في الكلام عن تجديد الشعر ، وبدلاً من ان أعمد الى تفصيل ما أراه من الموضوع ، أجدني مدفوعاً الى معالجته عملياً بهذه المنظومة ، التي أوحت بها إليّ فاجعة (قبية) الشهيدة .

والحق انني لم افكر بنشر هذه المنظومة ، لولا رغبة الأخ الدكتور سهيل ادريس ، وما أدري كيف يكون وقعها في أوساط النقاد ، ولكنها على أية حال محاولة ، لا أزعم انها بدع في المحاولات ، بيد انها تعبير صادق عن رغبة ما زلت أحسها قوية في نفسي . .

وقد وصلني الدكتور سهيل بمقال للشاعرة الكبيرة نازك الملائكة حول فكرة « الشعر الحر »[1] ، فلما رجعت اليه وجدتني معجباً – كدأبي ازاء هذه الشاعرة الكبيرة – بعمق ملاحظاتها ، على الرغم من خلافي إياها في بعض نقاط البحث . ويؤسفني ألا يسعفني الوقت بمتسع لتفصيل هذا الخلاف ، لذلك أكتفي من الحديث بإيراد الملاحظات العامة في ما يلي ، على ان اعود لاستكماله في أول فرصة ممكنة :

١ – إن التجديد الذي اتصوره – كما يبدو في هذه المنظومة – لا يستهدف الانفلات المطلق من تقاليد الشعر التقليدي ، وإنما هو تحرر من قيود البحور بالدرجة الاولى ، فالتزام التفاعيل أمر لا مندوحة عنه ، لسلامة الموسيقى التي هي اساس الشعر .

وكذلك القول بالنسبة الى القافية ، فهي ، كقرار موسيقي ، تشكل الوقفة الأخيرة في الدفقة الشعرية ، ولكنها – كما تراها هنا – لا تفرض نفسها في نهاية عدد معين من التفاعيل ، وبهذا يمكن تجنب الفوضى ، التي يثيرها عدم الالتزام (لحظة ثابتة في القافية) ، مما عدته الشاعرة نازك مأخذاً هاماً على الشعر الحر .

وفي اعتقادي أن التزام القافية بين نهاية كل دفقة واخرى من المنظومة ، ينقذ الشعر الحر من خطر انعدام الوقفات الثابتة التي تُعنى بتفصيلها مقال الشاعرة ، ويهيء للشاعر متكأ مريحاً ، يستكمل عنده المرحلة ليستأنف ما بعدها في نشاط وانتظام .

وإذا نحن أخذنا برأي الاستاذ مصطفى سويف من حيث اعتبار المقطع الشعري – قلّ او كثر – من القصيدة « مجموعة متكاملة .. لها من التماسك الداخلي مايجعلها تبدو للشاعر وحدة لا يمكن تجزئتها .. »[2] لأن « الشاعر لا يدع القصيدة بيتاً بيتاً ، بل قسماً قسماً .. في شكل وثبات .. في كل وثبة تشرق عليه مجموعة من الأبيات دفعةً واحدة .. »[3] ..

أقول إذا نحن أخذنا بهذا الرأي ، وهو صحيح ، حُقّ لنا ان نعتبر نظام القافية الواحدة لمجموع المقطع ، في هذا الضرب من الشعر ، مظهراً طبيعياً لتكامل الوثبة النفسية ؛ وفي هذا امتياز له على نظام الوحدات المختلطة في القصيدة التقليدية ، من

(١) « الأديب » عدد يناير ١٩٥٤

(٢و٣) الأسس النفسية للابداع الفني في الشعر خاصة ص٢٤٦و٢٤٨

شأنه ان يساعد على إحكام الخطة وربط المعاني في المنظومة — مهما طالت — وهكذا تنتفي الفوضى المحذورة، وتسيطر الحرية المنظمة.

٢ — مما يضاعف رغبتي في هذا الطراز من الشعر أنه شديد القابلية لهضم مختلف الأغراض — على خلاف ما تراه الشاعرة نازك — فهو بما له من الحرية في عدد التفاعيل، واسع الصدر، لا يضيق بما يضيق به نظام الشطرين من الانطلاق التعبيري، ولهذا أراه طيعاً لضروب الشعر الغنائي، طواعيته للقصص والملاحم والنوع المسرحي، ولعله اكثر انقياداً للضربين الأخيرين، ذلك لأنه يملك من النثر ميزة الحرية كما يملك من الشعر طبيعته الموسيقية اللازمة ..

وشيء آخر ايضاً، هو أن هذا النوع من المنظوم لا ينزلق في هاوية الشعر المرسل، الذي لم يفعل اكثر من انه انسلخ من القافية، فكان أشبه بالانسان عُري من جلده، وإنما هو شعر سوي، تتذوق فيه النغم منساباً إلى قراره الأخير — القافية — ولا تفوته حسنات الشعر المرسل.

ومهما يكن فالحكم في استساغة هذا الشعر موقوف على ألفة الأسماع، وفي اعتقادي أن نماذج رفيعة وفيرة منه كفيلة بأن تجعله قريباً من النفوس ..

ومن الاسراف في الخطأ أن نحصر مفهوم الشعر في قيود العروض الموروثة وحدها؛ فقديماً اشتبه الأمر على بلغاء العرب فزعموا القرآن شعراً، وزعموا رسول الله شاعراً، وما هو بشاعر، وما ينبغي له، ولكنه الجمال: جمال اللغة، وجمال التعبير، وجمال الأثر النفسي، كل ذلك مسّ قلوبهم فاختلط عليهم أمره، فادعوا له ما ليس به ..

وحسب الكلام أن يتوفر له بعض هذا الجمال حتى يكون هو الشعر، وإن شط عن بحور الخليل.

آه لو تنفع آه !

أي حُلمٍ ... مرّ كالنار على قلبي، فما يهدأ ذُعرا !
أيقظ الأشباحَ في أعماقيَ اللهفى، وأغفى ..
فأثار الكامن المحجوبَ من دائي
ومن ماضي شقائي

ليت شعري .. ما دها « قبيةَ » ماذا قد عراها !
ما الذي اجتاح حماها فمحاها !
عصف الغدر بها تحت الدجى
فهي ركامٌ من حُطامٍ ودماءِ

لهف أحشائي على تلك الصبايا
وصغارٍ كالأزاهير تفتحنَ لأنداءِ الصباحِ
وشبابٍ عاقه الدهرُ عن المجدِ المرجّى
زُلزلتْ تحتهم الأرضُ فراحوا كالهباء

مزّقوا الليل بأصوات الحيارى
واستغاثات العذارى
وحماة الدار — يا للعار — في نوم السكارى
لم تفُت أسماعَهم تلك النداءات .. ولكنْ ..
شاء « جنبول » فصمّوا عن صريخ الأبرياء

هذه الأشلاء . يا ويلي عليها ..
من بكاها ؟!. من رثاها ؟!.
لم تجد قبراً يواريها، ولا قلباً يناجيها ...
ولا شيّعها لحن صلاةِ
ذهبت كالحلمِ العابرِ لم يترك من الأصداء غير الصعداء

أين اشبالُ الميامين .. هُداة العالمينا !
أين احفاد عليٍّ والمثنّى .. وبقايا العز والنخوة منا !
مسخ الجبْنُ سلالات الأسودِ
فاستساغوا الصفع من أيدي اليهود
واستهانوا بمواريث الاباءِ

بُحّ صوت الحق .. والآذان دون الحق صُمٌّ
وتلاشت أنة الأشلاء في سمع الرمالِ
وتوارى امل الثأر .. فلا خير بأشباه رجال
عجزوا .. إلا عن التمثيل والقول الهراءِ

آه يا قبية !. لو تنفع آه ..
آه لو تكشف عن مكنون روحي شفتايَهْ ..
دمك المهدور يا قبية قد فتّق في الصدر الجراحا
ردّ طيفَ اللدّ والرملة للقلب وحيفا
وضحايا دير ياسينَ .. ودنيا الشهداءِ

لستِ يا قبية في الأيتام بدعا
كلنا في وحشة اليتم وفي الثكل سواءُ
سبق السهم فأرداكِ
وها نحن على إثر خطاكِ
غير أنا نجهل الموعدَ، والمجهول يا قبية سلوى الضعفاء
فاعذرينا ودعينا نرتقبْ في أملٍ يوم اللقاء

اللاذقية — محمد مجذوب